الاجتماع

عناصر الموضوع

مفهوم الاجتماع	٣٢٢
الاجتماع في الاستعمال القرآني	٣٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٤
أسباب الاجتماع	٣٢٦
أنواع الاجتماع	٣٤٨
معوقات الاجتماع المحمود	٣٦٣
الاجتماع يوم القيامة	٣٧٠

المجلد الأول

مفهوم الاجتماع

أولًا: المعنى اللغوي:

(جمع) الجيم والميم والعين أصل واحد، يدل على تضام الشيء، يقال: جمعت الشيء جمعًا، وجمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعًا، وجمعه وأجمعه فاجتمع.

واجتمع القوم واستجمعوا بمعنى: تجمعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، واتحدوا واتفقوا.

و(الجماعة) العدد الكثير من الناس، والشجر والنبات، وطائفة من الناس يجمعها غرض واحد.

و(الاجتماع) علم الاجتماع، علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموها وطبيعتها وقوانينها ونظمها، ويقال: رجل اجتماعي مزاول للحياة الاجتماعية، كثير المخالطة للناس.

و(المجتمع) موضع الاجتماع.

و(المجمع) موضع الاجتماع والملتقى، ومنه: مجمع البحرين، ومؤسسة للنهوض باللغة أو العلوم أو الفنون ونحوها (محدثة)[١].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني الاجتماع بأنه: تقارب أجسام بعضها من بعض[٢].

وعرفه السيوطي بقوله: الاجتماع: وجود أشياء كثيرة يعمها معنىً واحد[٣].

وقال المناوي: الاجتماع: مجاورة جوهرين في حيزين، ليس بينهما ثالث، وضده الافتراق، وهو وقوع جوهرين بينهما حيز[٤]. وكذا قال الكفوي[٥].

ولا يختلف معنى الاجتماع في الاصطلاح عن المعنى الذي يفيده في أصل اللغة، وإن كان مقصود الشرع من الاجتماع هو ما يحمد شرعًا، وهو أن يلتقي المسلمون، وينضم بعضهم إلى بعض، ولا يتفرقوا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٤٧٩ لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٥٣، تاج العروس، الزبيدي، ٢٠/ ٤٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ١٣٦.

(٢) التعريفات، ص١٠.

(٣) معجم مقاليد العلوم، ص١٣٧.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٨.

(٥) الكليات، ص٤٦.

الاجتماع في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (الاجتماع) في القرآن، ولكن ورد جذره، وهو: (جمع)، والذي يعني: تأليف المتفرق وانضمامه[1].

ولكن القرآن الكريم تحدث عن الاجتماع والتوحد وجمع الكلمة، من خلال الحديث عن الائتلاف، ونبذ الفرقة، والاعتصام بحبل الله.

(١) ١ انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللقاء:

اللقاء لغةً:

الملاقاة، وتوافي الاثنين متقابلين، ولقيته لقوةً، أي: مرةً واحدةً، ولقاءةً، ولقيته لقيًا ولقيانًا، واللقية فعلةٌ من اللقاء، والجمع لقى[١].

اللقاء اصطلاحًا:

قال الرازي: وصول أحد الجسمين إلى الآخر؛ بحيث يماسه بشخصه[٢].

وقال الراغب: مقابلة الشيء ومصادفته معًا، وقد يعبر به عن كل منهما[٣].

الصلة بين الاجتماع واللقاء:

اللقاء حسي، أما الاجتماع فقد يكون حسيًا، وقد يكون معنويًا.

وأيضًا فاللقاء: هو الاجتماع على وجه المقاربة والاتصال، والاجتماع قد يكون على غير المقاربة والاتصال[٤].

٢ الاعتصام:

الاعتصام لغةً:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]. أي: تمسكوا بعهد الله[٥].

والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[٦].

الاعتصام اصطلاحًا:

ولا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٦٠، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٨٤، تاج العروس، الزبيدي، ٣٩/ ٤٧٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٩٢.

(٣) المفردات، ص٧٤٥.

(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٤٦٧.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤١٨، تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٢٠٥.

(٦) المفردات، الراغب، ص ٥٦٩ ، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي، ٣٣/ ١٠١.

الصلة بين الاجتماع والاعتصام:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، والمقصود: الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة للاجتماع، وطريق إليه؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع.

٣ الاختلاف:

الاختلاف لغةً:

ضد الاتفاق[١]، وهو منازعة تجري بين المتعارضين؛ لتحقيق حقٍ أو لإبطال باطل[٢].

الاختلاف اصطلاحًا:

عرفه الراغب بقوله: «والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله»[٣].

الصلة بين الاجتماع والاختلاف:

الخلاف والاختلاف هو المضادة والمعارضة، وعدم المماثلة، وهو بهذا المعنى ضد الاجتماع، الذي جاء الحث عليه في نصوص القرآن الكريم.

٤ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[٤].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بدّده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[٥].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الاجتماع والتفرق:

التفرق خلاف التجمع، وهو ضد الاجتماع، الذي جاء الحث عليه في القرآن الكريم.

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٨٠٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.
(٣) المفردات، ص ٢٩٤.
(٤) انظر: المخصص، ابن سيده، ٣/ ٣٦٠.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٩١٨.

أسباب الاجتماع

أسباب الاجتماع التي يجتمع الناس عليها كثيرة، منها:

أولًا: الاجتماع لهدف واحد:

من أسباب الاجتماع أن يجتمع الناس على هدف واحد، ومن هذه الأهداف:

١. الاجتماع للعبادة.

حث الله تعالى على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة بين المؤمنين؛ ولأنه عند اجتماعهم يتشاورون في دفع ما ينزل بهم من البأساء، أو يجلب لهم السراء[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

ومما يدل على فضل الاجتماع على هذه العبادة، وهي الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

قال ابن كثير: «فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالًا وركبانًا، مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك»[(٢)].

والحاصل أن الله تعالى جعل للمسلمين مناسبات دينية يومية وأسبوعية وسنوية يجتمعون فيها، ومن هذه الاجتماعات الأسبوعية يوم الجمعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩].

فأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، من حين ينادى لها، والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها، والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع إذا

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٠٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٠٠.

نودي للصلاة، وامضوا إليها، فإن ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة[1].

وإنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمل جميع الخلائق[2]. أو لأنه جمع في هذا اليوم خلق آدم[3]. وقيل: لأن الله تعالى فرغ فيه من خلق الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات، وقيل: لاجتماع الجماعات فيها[4]. وهذه الأقوال كلها صحيحة.

فالحاصل: أن يوم الجمعة يوم يجتمع المسلمون، وما سميت جمعة إلا لما فيها من الاجتماع، وقد اشترط العلماء العدد في صلاة الجمعة، واختلفوا في أقل عدد تنعقد به الجمعة، على أقوال كثيرة، بلغت ثلاثة عشر قولًا، ومحل بسطها كتب الفقه.

فصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة التي لا تصح إلا جماعة، وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون، ويلتقوا، ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله، وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد، وفي العبادة الواحدة، وكلاهما عبادة، وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية...، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة، والحث عليها، والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب[5].

وأمر الله المسلمين بالسعي إلى ذكر الله؛ لأن الغالب في الجُمع أن يكون فيها ذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر جنته وناره، وفي قوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: من أجل الاجتماع والصلاة وذكر الله.

وفيه: تذكرة بأمر أعظم، وهو أنه سيأتي يوم عظيم يجتمع الناس فيه، وهو يوم المعاد، وهذا اليوم نعته الله جل وعلا بقوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤] فيترك الإنسان البيع في الدنيا، ويلجأ إلى الله في مثل هذا اليوم العظيم تذكرة لنفسه باليوم الذي يغدو الناس فيه بين يدي رب العالمين، والإنسان لا بد أن يكون له باعث من نفسه.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٤٣٤.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٨٤.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٥٦٩.

ومن صور الاجتماع: الاجتماع في الحج، ففي الحج يجتمع المسلمون من جميع أقطار العالم، في مكان واحد، وزمان واحد، وقد أمر الله قريشًا أن يفيضوا من حيث تفيض جماعة الناس حرصًا على الاجتماع، واقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩].

فالحج هو مؤتمر المسلمين الجامع الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة، ولا يميز فردًا عن فرد، ولا قبيلة عن قبيلة، ولا جنسًا عن جنس، إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة، ونسب الإسلام هو وحده النسب، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة[1].

والمقصود: أن الاجتماع مقصد عظيم، يظهر فيه وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم، ووحدة صفهم، وهذا المقصد العظيم يظهر جليًا في صلاة الجماعة التي تتكرر في اليوم خمس مرات في المساجد، فهي اجتماع مصغر، يلتقي فيه أصحاب الحي في اليوم خمس مرات في بيت من بيوت الله عز وجل، يؤدون فريضةً من فرائض الله، ثم يأتي اجتماع أكبر وهو يوم الجمعة، وهو اجتماع أسبوعي، ثم يأتي اجتماع في السنة مرتين وهو الاجتماع لصلاة العيدين (عيد الفطر وعيد الأضحى) ثم يأتي الحج، وهو الاجتماع السنوي للمسلمين، وهو واجب في العمر مرة، وفي هذا الاجتماع منافع كثيرة.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى كثيرًا من المنافع التي تترتب على الاجتماع في الحج، فمنها: تعرف المسلمين على بلاد بعضهم، وعلى أحوالهم، ويتعرف التاجر على مواطن التجارة في البلدان المختلفة، ويتعرف على ما يحتاج إليه المسلمون في كل مكان من بقاع الأرض، بالإضافة إلى أن هذا الاجتماع مظهرٌ من مظاهر وحدة المسلمين؛ لأنهم يظهرون بلباس واحد، ويجتمعون في مكان واحد، يدعون ربًا واحدًا، ويقومون بأعمال واحدة، ولا فرق بين غنيهم وفقيرهم، فهذا مظهر أيضًا من مظاهر اجتماعهم، ووحدة كلمتهم.

ومن الاجتماعات الموسمية، والمناسبات العبادية العظيمة: صوم رمضان، فهو عبادة موسمية من مواسم الخير، تكون في شهر رمضان، تقترب فيه القلوب إلى بارئها، وتفتح فيه أبواب الجنة، وانظر كيف جاء الأمر به بشكل جماعي، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] أي: فُرِضَ

(١) انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٠٠.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والأمم، وأولهم آدم عليه السلام[1].

وفي هذه الآية: إشعار بوحدة الدين أصوله ومقصده، وتأكيد لأمر هذه الفرضية، وترغيب فيها.

والمقصود: أن الله سبحانه يعلم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون، ودفع واستجاشة لتنهض به، وتستجيب له، مهما يكن فيه من حكمة ونفع، حتى تقتنع به، وتتعود عليه؛ ولهذا فإن كثيرًا من العبادات اتخذت طابع الجماعية.

ففي هذه الفريضة -الصوم- نجد أن التكليف بدأ بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المذكر لهم بحقيقتهم الأصيلة، ثم يقرر لهم بعد ندائهم ذلك النداء أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كل دين، وأن الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى، والشفافية والحساسية، والخشية من الله[2].

٢. الاجتماع لقتال الكفار.

أمر الله تعالى بالاجتماع عند قتال الكفار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء:٧١] أي: مجتمعين جيشًا واحدًا.

ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين؛ ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك.

وثُباتٍ: جماعات متفرقة، سرية بعد سرية، وفرقة بعد فرقة، إظهارًا للجرأة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين، كركبة واحدة...، والغرض النهي عن التخاذل، وإلقاء النفس إلى التهلكة[3].

قال القاسمي: «﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ إيقاعًا للمهابة بتكثير السواد، ومبالغة في التحرز عن الخطر، قال الحاكم: اتفق العلماء على أن ذلك موكول إلى اجتهاد الإمام»[4].

وقال الآلوسي: «قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين جماعة واحدة»[5].

ومما جاء في الاجتماع في القتال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤] أي: صافين أنفسهم[6].

والصف: عدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن، فيطلق على صف المصلين، وصف الملائكة، وصف الجيش في ميدان القتال، فالجيش إذا حضر القتال كان صفًا،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٦٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٦٨ بتصرف.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٤٤٦.
(٤) محاسن التأويل ٣/ ٢٢١.
(٥) روح المعاني ٣/ ٧٨.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٧٥.

من رجالة أو فرسان، ثم يقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات، فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبر، وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق، وكر وفر، وانتصب (صفًا) على الحال، بتأويل: صافين، أو مصفوفين[1].

ثم قال: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ لاصق بعضه ببعض، وقيل: أريد به استواء نياتهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض، وهو حال أيضًا[2].

وقد اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيان المرصوص، فنقل بعضهم عن الفراء: أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته، والجمهور: أنه المتلاصق المتراص المتساوي.

والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء، لا في تلاحمه بالرصاص، وعدم انفكاكه، ولا تساويه وتراصه؛ لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها.

قال الشنقيطي: «والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن وجه الشبه المراد هنا: هو عموم القوة والوحدة»[3].

والحاصل: أن في الآية الحث على الجهاد في سبيل الله صفًا متراصًا متساويًا، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب، به تحصل المساواة بين المجاهدين، والتعاضد وإرهاب العدو، وتنشيط بعضهم بعضًا، والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض، والتشبيه في الثبات، وعدم الانفلات.

فليس هو مجرد القتال؛ ولكنه هو القتال في سبيله، والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف، والقتال في ثبات وصمود ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

٣. الاجتماع على إبطال الحق.

لما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون بالمعجزة، وكانت قلب العصا ثعبانًا، وإظهار اليد البيضاء، جمع فرعون السحرة، وحشروهم من المدائن، يعني من القرى، واختار الطاغية الكافر وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة، وادعى كون موسى ساحرًا، فتشاور مع كبار رجال دولته، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة مصر المهرة وبين موسى.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٧٦.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٧٥.
(٣) أضواء البيان، ٨/ ١٠٦.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء:٣٦-٣٩].

وتم جمع السحرة من أنحاء المملكة، قيل: كانوا سبعين رجلًا أو ثلاثة وسبعين، ودل قوله: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

فقرر أن يكون مكان الاجتماع -للمناظرة والمغالبة في زعمه- مكانًا سوى، وأصح الأقوال في قوله: ﴿سُوًى﴾ على قراءة الكسر والضم: أنه مكان وسط، تستوي أطراف البلد فيه لتوسطها بينها، فلم يكن أقرب للشرق من الغرب، ولا للجنوب من الشمال، وهذا هو معنى قول المفسرين مكانًا سوى، أي: نصفًا وعدلًا؛ ليتمكن جميع الناس أن يحضروا[١].

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ أي: بأيسر أمر؛ لما له عندهم من العظمة ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ واليوم المعلوم: يوم الزينة، وميقاته: وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى -صلوات الله عليه- من يوم الزينة في قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩][٢].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كافة؛ حثًا لهم على الإسراع إلى الاجتماع بأمر فرعون، وامتحانًا لهم هل رجعوا عن دينه ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتمعوا، وعبر بالاستفهام حثًا على الاجتماع.

كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحركه، ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ أي: في دينهم، إن غلبوا موسى[٣].

وهدف هذا الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلبًا أن يكون بمجمع من الناس، حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين، والانقهار للمبطلين[٤].

ولعل معنى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتماعًا أنتم راسخون فيه؛ لكونه بالقلوب كما هو بالأبدان، كلكم ليكون أهيب لكم[٥].

والحاشرون: هم الذين يتولون جمع السحرة وحشدهم وحشرهم إلى ساحة فرعون، والتعبير بالحشر هنا يشير إلى أن الأمر عظيم، وأنه لا بد له من حشر الناس

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣١١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٥.
(٥) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٣١.

إليه، وبعثهم سراعًا من كل أفق، ليلقوا موسى، ويقفوا في وجه هذا الخطر الذي دهمهم به.

وحُشر السحرة على عجل، وأقبلوا من كل أفق، وغصت بهم ساحة فرعون، وما كانوا قد رأوا رأى العين ما كان من فعل موسى بعصاه ويده مع فرعون، وإن كانوا قد سمعوا به، وتصوروه على ما روي لهم، ومن هنا وقع في أنفسهم أنه ساحر مثلهم، وأنه إذا كان على شيء من القوة بالنسبة لهم، فإن في جمعهم هذا ما يتغلب على كل قوة.

ومن هنا أيضًا وقع في أنفسهم أنهم أصحاب الموقف المنتظر بينهم وبين موسى، فكانت لهم بذلك دالة على فرعون، وقد أطمعهم فيه ما وجدوه عليه من ذلة وانكسار، فجاءوا إليه يسألونه الأجر مقدمًا، ويسألونه الجزاء الذي لهم عنده، بعد أن يكون لهم الغلب! ولا يملك فرعون في هذا الموقف إلا أن يستجيب لهم، ويترضى مشاعرهم، حتى يبذلوا كل ما يملكون من حول وحيلة، إنهم الآن لا يعملون إلا بأجر، وقد كانوا من قبل هذا الموقف عبيدًا مسخرين! فليس الأجر وحده، ولا المال وحده هو الذي سيبذله لهم، إن هم انتصروا على موسى، وأبطلوا كيده، وأفسدوا تدبيره، ولكن لهم إلى هذا المال الوفير الذي سيغدقه عليهم أن يقربهم إليه، ويدنيهم منه، ويجعلهم أعوانه، وأصحاب الكلمة والرأي عنده، ولا يذكر القرآن هنا اجتماع السحرة بموسى، والاتفاق معه على موقع المعركة وزمانها؛ فذلك متروك لتقدير من يتلو هذه القصة، وتصوره لملء هذا الفراغ الذي لا يغيب عن فطنته[1].

والحاصل: أن هذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موّه به فرعون الجاهل الضال المضل أن ما جاء به موسى سحر، قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن، من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتوًا وضلالًا وتماديًا في غيه وعنادًا، فقال للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء:٤٩] يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩] هذا وهو

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٤٥٣.

الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح، والآيات الباهرة؛ لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان إنه على خلاف حقيقته صدقوه[1].

ثانيًا: الاجتماع على قاسم مشترك:

ومن أسباب الاجتماع بين الناس وجود قاسم مشترك يجمع بينهم، ويؤلف بين قلوبهم، ومن هذه القواسم المشتركة:

١. الدين.

الدين من أعظم الأسباب الموحدة بين الناس، بل هو السبب الأول، وقد أمر الله عباده أن يتمسكوا به، ويجتمعوا عليه، وعلى هذا بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين، والألفة والجماعة، وترك الفرقة.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

فذكر في هذه الآية الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، وهي إقامة الدين، وعدم التفرق فيه.

وقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه:

الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس، وتوافقت على واحد قوي التأثير.

الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معينًا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت، وتجادلت فضعفت، فلا يحصل المقصود.

الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج، والقتل والنهب؛ فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ [الأنفال:٤٦][2].

فالعقيدة أقوى الروابط التي تربط بين الناس، وبخاصة إذا سلمت وصحت وقويت في نفس صاحبها، ومنشأ ذلك أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩١.

(٢) انظر: مفاتح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.

صاحب العقيدة القوية يرى نفسه مفردًا بسبب هذه العقيدة عن الناس، وحيدًا بينهم، غريبًا فيهم، فهو في مسيس الحاجة إلى من تسكن إليه نفسه، ويأنس به قلبه، ويشتد به أزره، وليس في ذلك إلا رجل اعتقد مثل عقيدته، وآمن بمثل ما آمن به، هنالك تلتئم الروحان، ويتحد القلبان، وتسكن ثائرة النفس، ويستشعر كل منهما بالآخر روح الأنس، ويود أحدهما لو يفتدي الآخر بالدنيا وما فيها، وما قيمة الدنيا وما فيها إذا خلت من أنيس يرتاح إليه القلب، وتسكن معه النفس؟! هذا هو منشأ الوحدة والارتباط في نفوس أهل العقيدة الواحدة، والمبدأ المتفق.

وإنك لترى بين الناس روابط كثيرة من نسبية وعصبية؛ وصداقة ومعرفة، واشتراك في تجارة؛ أو مصلحة؛ أو غاية مما يرتبط بهذه الأغراض الزائلة، فترى كل الروابط سريعة الزوال، وشيكة الانحلال، على حين ترى أهل العقيدة الواحدة على قلب واحد، وشعور واحد[1].

والحاصل: أن من الأسباب التي تربط بين الناس الدين والعقيدة المشتركة؛ ولهذا عظم الله أمر الاجتماع عليه، وأتبع ذلك التعظيم بالنهي عن الافتراق فيه، فقال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: في الدين، تفرقًا عظيمًا؛ بما أشار إليه إثبات التاء، وكأن ذلك إشارة إلى التحذير من التفرق في الأصل.

فإن التفرق سبب الهلاك، والاجتماع سبب النجاة[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنها على شيء، وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين، في قديم الدهر وحديثه»[3].

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك، يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها؛ فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه الاجتهاد، واختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد؛ فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعًا متعادين متفرقين، يلعن بعضهم بعضًا، ويذيق بعضهم بأس بعض»[4].

والمقصود: أن الله تعالى أوجب علينا إقامة الدين، بالتمسك بكتابه وسنة نبيه،

(١) انظر: نظرات في كتاب الله ص ٤٥٠ بتصرف.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ٢٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣١٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢١/ ٩٦.

والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملًا؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف.

ومع أهمية الاجتماع يبقى أن الاجتماع المأمور به إنما هو بالقلوب الجاعلة لهم كالجسد الواحد، ولا يضر فيه صرف بعض الأوقات إلى المعاش، وتنعيم البدن ببعض المباحات.

ويبين الشافعي رحمه الله أن اجتماع الأبدان ليس بمعتبر ولا مقصود، بل المقصود والمعتبر الاجتماع على طاعة الله ورسوله، والاجتماع على الحق، فيقول بعد أن بين أن الأمر بلزوم جماعة المسلمين ليس له إلا معنى واحد؛ ذلك أنه: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين؛ ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم، والطاعة فيهما، ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها[1].

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

فأخبر الله عز وجل في هذه الآية أن الناس كانوا أمة واحدة، أمة مجتمعة على ملة واحدة، ودين واحد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[2].

وقيل: إن وقت كون الناس أمة واحدة على دين التوحيد يوم استخرج ذرية آدم من صلبه، فعرضهم على آدم، يقول أبي بن كعب رضي الله عنه: «كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطرهم يومئذٍ على الإسلام، وأقروا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين كلهم، ثم اختلفوا من بعد

(١) الرسالة، ١/ ٤٧٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٦.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٩.

آدم[١].

فالله سبحانه إنما بعث الرسل، وأنزل الكتب عند الاختلاف، فالأصل في البشرية هو الاجتماع على التوحيد الخالص لله عز وجل، والأصل أن الناس كانوا مجتمعين على الدين الواحد، دين التوحيد، وأنه ما إن دب الشرك في الأمة إلا وقارنته الفرقة، فاستلزم بعثة الأنبياء والرسل رحمة من الله تعالى بالناس، وإعذارًا لهم، فهو سبحانه كما في الحديث: (**لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**)[٢].

٢. الإيمان.

ومن القواسم المشتركة التي تجمع بين الناس: الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

يعني: كالإخوة في التعاون؛ لأنهم على دين واحد[٣].

وفي الآية بيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب، والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها، ولم يتقاصر عن غايتها، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح، وبثًا للسفراء بينهما، إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه، وما استشن[٤] من الوصال من يبله، فالأخوة في الدين أحق بذلك، وبأشد منه[٥].

و(إنما) للحصر، أي: لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع؛ ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين، ولا يكون لأخيه الكافر[٦].

قال الزجاج: «أَعْلَمَ الله عز وجل أن الذين يجمعهم وأنهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا في الاتفاق في الدين إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، ولو اختلفت أديانهم لافترقوا في النسب، وإن كان في الأصل أنهم لأب وأم»[٧].

فالصلة التي ينبغي أن تقوم بين المؤمنين هي صلة أخوة ومودة، دون نظر إلى لون أو جنس أو وطن، فقد جمعهم الإسلام في نسب يعلو على نسب الدم والجنس

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا شخص أغير من الله، ٩/ ١٢٣، رقم ٧٤١٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٧.
(٤) قوله: «استشن» في الصحاح: تشنن الجلد يبس، واستشن الرجل: هزل.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٦.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٧.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٦.

والوطن، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وإنه لمن قلْب الأوضاع أن ينعزل المؤمن بشعوره هذا من المودة والأخوة عن إخوانه المؤمنين، وينحاز إلى الكفار، يعطيهم ولاءه ومودته وأخوته، والإسلام الذي يدعو إلى الحب والسلام إذ يدعو أتباعه إلى التراحم والتواد والتآخي فيما بينهم، لا يجعل ذلك على حساب الصلات الأخوية التي ينبغي أن تكون بين المسلم وبين سائر الناس(١).

يقول القاسمي: «وتسمية المشاركة في الإيمان أخوة تشبيه بليغ، أو استعارة شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد؛ لأن كلًا منهما أصل للبقاء؛ إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان»(٢).

والحاصل: أن المؤمنين بسبب إيمانهم إخوة، أي: في التوالي والتعاضد والتراحم؛ ولهذا فالمؤمنون قلوبهم على قلب رجل واحد فيما يعتقدونه من الإيمان، وأما المنافقون فقلوبهم مختلفة، كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤] فإذا كان المؤمنون إخوة أمروا فيما بينهم بما يوجب تآلف القلوب واجتماعها، ونهوا عما يوجب تنافر القلوب واختلافها، وهو إصلاح ذات البين.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٤٢٩.

(٢) محاسن التأويل، ٨/ ٥٢٩.

حتى الملائكة يجمعهم بالمؤمنين الإيمان؛ ولهذا يستغفرون للذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر:٧] وفي هذا تنبيهٌ على أن المشاركة في الإيمان يوجب النصح والشفقة وأن تخالف الأجناس؛ لأنها أقوى المناسبات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وهذه الأخوة الدينية مما يحسدنا عليها جميع أهل الملل، فهي لا تزال أقوى فينا منها فيهم ترافدًا وتعاونًا، وعاصمة لنا من فوضى الشيوعية، وأثرة المادية وغيرها، على ما منيت به شعوبنا من الضعف، واختلال النظام، واختلاف الجنسيات والأحكام(٣).

ومما يترتب على هذه الأخوة: أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف؛ وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك(٤).

ومما يبين هذه الصلة الإيمانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٢ بتصرف.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٣.

إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة، وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير، ودفع الشر.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وتحقيق الخير، ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفًا واحدًا، لا تدخل بينها عوامل الفرقة، وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة، ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها، السمة التي يقررها العليم الخبير ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض[1].

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة، إن الجاهليات تجعل الرابطة آنًا هي الدم والنسب، وآنًا هي الأرض والوطن، وآنًا هي القوم والعشيرة، وآنًا هي اللون واللغة، وآنًا هي الجنس والعنصر، وآنًا هي الحرفة والطبقة! تجعلها آنًا هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك، وكلها تصورات جاهلية -على تفرقها أو تجمعها- تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي! والمنهج الرباني القويم -ممثلًا في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وفي توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه، قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير، والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق[2].

٣. الهدى.

ومن القواسم المشتركة التي يجتمع الناس عليها: الهدى.

قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:٣٠].

وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

فهؤلاء صنفان وجمعان، فالأولون اجتمعوا على الهدى، والآخرون اجتمعوا على الضلالة، وشتان بين الجمعين والفريقين.

والفريق يصدق بالجماعة الكثيرة[3].

وهذا كله إنذار من الوقوع في الضلالة، وتحذير من اتباع الشيطان، وتحريض على توخي الاهتداء الذي هو من الله تعالى، كما

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٥ بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٨٣.

دل عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾.

فيعلم السامعون أنهم إذا رجعوا إليه فريقين، كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى، كما قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وأن الفريق الخاسر هم الذين حقت عليه الضلالة، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، كما قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩](١).

إنها لقطة واحدة عجيبة، تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى، ونقطة النهاية، نقطة الانطلاق في البدء، ونقطة المآب في الانتهاء...، وقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه، والشيطان وقبيله، وكذلك سيعودون، الطائعون سيعودون فريقًا مع أبيهم آدم، وأمهم حواء، المسلمين المؤمنين بالله، المتبعين لأمر الله، والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنم، بولائهم لإبليس، وولايته لهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون.

لقد هدى الله من جعل ولايته لله، وأضل من جعل ولايته للشيطان، وها هم أولاء عائدين فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

وهذا فيه إشارة إلى أن الهدى من الأمور التي تجمع بين الناس.

فقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾ جميعًا ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وَالْهُدَى هنا بمعناه الخاصِ؛ لأن الْهُدَى يُطْلَقُ في القرآنِ إطلاقين: يطلق إطلاقًا عامًا، ويطلقُ إطلاقًا خاصًا، أما الهدى بمعناه العام: فهو إبانةُ الطريقِ وإيضاحُها وتوضيحُ الخيرِ من الشَرِ، ومنه بهذا المعنى في القرآنِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:١٧] أي: أَوْضَحْنَا لهم طريقَ الخيرِ وَالشَرِ بَيِنَةً على لسانِ نَبِينَا صالحٍ، وليس هذا الْهُدَى (هُدَى تَوْفِيقٍ) وإنما هو (هُدَى بَيَانٍ) فَقَطْ، بدليلِ قولِه: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] وأما الْهُدَى بمعناه الخاصِ فهو: التوفيقُ إلى ما يُرْضِي اللَهَ.

والحاصل: أن من العوامل المشتركة بين الخلق الاجتماع على الهدى، كاجتماع الملائكة، والأنبياء وأتباعهم.

وسلب الاجتماع على الهدى لا ينافي اتباع البعض لهذا الهدى، فالاجتماع على الهدى مطلوب شرعًا، وحاصل واقعًا، إلا أن تحقق ذلك بيد الله الهادي سبحانه ﴿وَلَوْ

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٩٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٨١.

﴿شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]

أي: ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه، إما بأن يجعل الإيمان ضروريًا لهم كالملائكة، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير، لا متفاوتي الاستعداد، مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات؛ ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت، وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار[(١)].

وقيل: لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيَهم بآيةٍ ملجئةٍ إليه، ولكن لم يفعلْه لخروجه عن الحِكْمة[(٢)].

٤. الكفر.

ومن القواسم المشتركة: الكفر، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار بعضهم من بعض، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال:٧٣].

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي: في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين، وإن كانوا مللًا كثيرة، يعادي بعضها بعضًا؛ إلا أن بعضهم أعوان بعض وأنصاره، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله، وإنما جعل بعضهم من بعض؛ لأن دينهم واحدٌ، وطريقتهم واحدة.

قال ابن جرير: «قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ عنى بذلك: أن بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم، معرِفًا بذلك عباده المؤمنين أن من كان لهم أو لبعضهم وليًا فإنما هو وليُّهُم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حَرْب، فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضًا بعضكم أولياء بعض، ولليهودي والنصراني حربًا؛ كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء؛ لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحربَ، ومنهم البراءة، وأبان قطع وَلايتهم»[(٣)].

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ هو تقرير لحكم واقع بين الكافرين، وهو أنهم على ولاء فيما بينهم، وأنهم حزب واحد، مجتمع على عداوة المؤمنين، ناصب لحربهم، راصد للفرصة الممكنة له منهم، وليس في هذا

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٢٩.
(٣) جامع البيان، ١٠/ ٣٩٩.

الذي يقرره القرآن الكريم دعوة لجماعات الكافرين أن يكونوا على هذا الولاء الذي بينهم، وإنما هو تقرير لأمر واقع، يرى منه المؤمنون كيف يجتمع أهل الضلال على الضلال؟! وكيف يقوم بينهم الولاء والتناصر؟! فأولى للمؤمنين ثم أولى لهم أن يجتمعوا على الإيمان، وأن يتناصروا على الحق والخير[1].

فالكفار -كما نعلم- وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض، فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا، ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام، وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط، نجد قول الحق تحذيرًا لهم من هذا ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧].

فالمنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان، وفي كل مكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم؛ ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسًا وهمسًا وغمزًا ولمزًا[2].

فقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ يعني: في الاجتماع على الضلال، كما قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] أي: في الاجتماع على الهدى[3].

قال البغوي: «قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: هم على دين واحد، وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق»[4].

فالمنافقون والمنافقات وصفهم الله بقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع، فهم يقلدون بعضهم بعضًا، وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر فكلهم شر، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير، أو يحاول رَدَهم عن النفاق، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى.

ولما كان مرضهم واحدًا، وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابهًا، قال الإيجي في تفسير هذه الآية: أي: هم على دين وطريق واحد، وبعضهم مشابه ومقارب من

(١) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٦٨٦.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.
(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٣.
(٤) معالم التنزيل، ٤/ ٧١.

بعض، كأبعاض الشيء الواحد[1].

والحاصل: أن المنافقين يربط بينهم عامل مشترك، وهو أن بعضهم يشبه بعضًا في الشك والنفاق والارتياب، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف؛ إذ الولاية والصلة والأخوة هي من صفات المؤمنين أصحاب العقائد الراسخة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وقال في وصف المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ما الحكمة في ذلك؟

أجيب: بأنه لما كان نفاق الأتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة، قال فيهم: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة، وهوى النفس، وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض، فظهر الفرق بين الفريقين، وظهرت الحكمة[2].

والمقصود: أن الكفر صفة مشتركة قد جمعت بين الكافرين، كما أن الشك والنفاق والارتياب صفة مشتركة قد جمعت بين المنافقين، كما أن المؤمنين بعضهم من بعض، أي: بعضهم أولياء بعض في الاجتماع على الهدى.

٥. العاقبة.

ومما يجمع الناس العاقبة المشتركة، سواء كانت خيرًا أو شرًا، وقد أخبر الله تعالى أن المجرمين تجمعهم عاقبة واحدة، وهي أنهم جميعًا في العذاب، التابع والمتبوع.

قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف:٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصافات:٣٣].

فذكر العذاب الذي سيحل بهم جميعًا رؤساء ومرؤوسين، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: إن الفريقين المتسائلين حينئذٍ مشتركون في العذاب لا محالة، كما اشتركوا في الضلال والغواية.

فَحُقَّ لهؤلاء أن يجتمعوا ويشتركوا هم وقرناؤهم في العذاب، كما كانوا مشتركين ومجتمعين في سببه، وهو الكفر والمعاصي، فقد اجتمعوا واشتركوا؛ ولكنه بئس الاجتماع والاشتراك.

ولا يخفف هذا الاجتماع والاشتراك عنهم شيئًا من العذاب؛ لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب[3].

فكأن الله تعالى منعهم التأسي بما يُسَهِل

(١) جامع البيان، الإيجي ٢/ ٨٠.
(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٦٣١.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٧٣ بتصرف.

على الإنسان المصيبة والعقوبة، فإنه إذا كان في مصيبة فرأى غيره في مثلها سهل عليه، كما قالت الخنساء في أخيها صخر[1]:

وَلَوْلا كَثْرة البَاكِين حَوْلي
على إِخْوانِهم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُون مثلَ أخِي ولكِنْ
أُسلِي النَفْس عَنهُ بالتَأسِي

ففي هذا حرمان التأسي، وهي نعمة يسلبها الله أهل النار؛ ليكون أشد لعذابهم، فإن التأسي قد يخفف كثيرًا عن المتأسي من حزنه[2].

وقد بين الله تعالى أن حصول الشركة في هذا العذاب لا يفيد التخفيف، كما كان يفيده في الدنيا، والسبب فيه وجوه:

الأول: أن ذلك العذاب شديد، فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جرم أن الشركة لا تفيد الخفة.

الثاني: أن قومًا إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه، فيحصل بسببه بعض التخفيف، وهذا المعنى متعذر في القيامة.

الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعًا كثيرة من السلوة، فبين تعالى أن الشيطان وإن كان قرينًا إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة، وخفة العقوبة[3].

بل إن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد في ألمه وحسرته؛ ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم التي أضلتهم.

قال معمر عن سعيد الجريري: بلغنا أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبر شفع بشيطانه فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار، فذاك حين يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

وقد أخبر الله تعالى عن حنق الكفار على من أضلهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت:٢٩].

فإذا قرن أحدهم بمن أضله في العذاب كان أشد لعذابه، فإن المكان المتسع يضيق على المتباغضين باقترانهما في المكان الضيق، وأخبر الله تعالى عن اختصام الكفار مع من كان معهم من الشياطين، ومن عبدوه من دون الله تعالى[4].

ومع اشتراكهم في العذاب إلا أن للمتبوعين عذابًا زائدًا للإغواء، ولكن الزيادة لا تنافي الاشتراك في أصل الشيء كما دلت عليه أدلة أخرى؛ لأن المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصله.

قال السعدي: «ولكنه من المعلوم أن

(١) البيتان في ديوانها ص ٧٢.
(٢) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ١٠٦٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٣٣.
(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٩٩.

عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨].

فهذه الآيات ونحوها دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله مخلدون في العذاب، مشتركون فيه، وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة»[1].

والمقصود: أن المجرمين اجتمعوا على هذه العاقبة السيئة، وهي الاشتراك في العذاب، كما اشتركوا في سببه في الدنيا، ولكن لن ينفعهم اشتراكهم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكُهم فيها؛ لتعاونِهم في تحملِ أعبائِها، وتقسمِهم لعنائِها؛ لأنَ لكل منهم ما لا تبلغُه طاقتُه كما قيلَ؛ لأنَ الانتفاعَ بذلكَ الوجهِ ليسَ مما يخطرُ ببالِهم.

بل إن في هذا الاجتماع تعذيب وحسرة، فمن قذفه عصيانه لله ولرسوله في النار، فإن له من العذاب ما يمنعه عن الأنس بغيره، فهو وحيد لا يجد لذة في الاجتماع بغيره ولا أنسًا، فلما كان لا يتمتع بمنفعة من منافع الاجتماع كان كأنه وحيد.

فالعذاب إذن كامل، لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون! ولهذا تقع الملاحاة بين الأتباع والمتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، وتتقطع بينهم أسباب التقارب والتواصل، ويترامون بالعداوة والبغضاء! والأتباع والمتبوعون هنا: هم جميعًا من أهل الضلال، أما الأتباع فهم العامة، وأما المتبوعون فهم العلماء وأصحاب القيادة الدينية فيهم؛ إذ هم الذين زينوا للعامة هذا الضلال، وهم الذين حرفوا لهم الكلم عن مواضعه، فأهلكوهم وهلكوا معهم جميعًا.

فالمشهد هنا بين الأتباع والمتبوعين قائم على شفير جهنم التي يساق إليها الأتباع والمتبوعون معًا؛ ولما كان هؤلاء المتبوعون هم الذين زينوا لأتباعهم هذا الضلال الذي أوردهم موارد الهلاك، فقد وقع في أنفسهم حين رأوا العذاب الذي ينتظرهم أن أتباعهم سوف يتعلقون بهم، ويسوقونهم للقصاص منهم، بتهمة التحريض والغواية لهم، عندئذٍ بادر هؤلاء المتبرعون، وتبرؤوا من أتباعهم، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم!

وحين يجد الأتباع أنهم وقادتهم حصب جهنم، كما يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يتضاعف حزنهم، وتشتد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٨.

حسرتهم، ويقطع اليأس نياط قلوبهم، حين لم ينالوا منالًا من هؤلاء الذين غرروا بهم، وأوردوهم هذا المورد الوبيل!

وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظًا ويأسًا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧].

فهم إنما يتمنون -في يأس مغلق- أن يردوا هم ورؤساؤهم إلى هذه الدنيا ليراجعوا حسابهم معهم، على ضوء ما تكشف لهم في هذا الموقف؛ وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها، أما تبرؤهم منهم في الآخرة فإنه لا يجدى نفعًا، فقد دعوا إلى الضلال وأجابوا.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الخطاب هنا للفريقين، التابعين والمتبوعين، إنه لن ينفعهم اشتراكهم جميعًا في العذاب، ولن يشفى ما بصدور الضالين من نقمة وحنق على من كانوا سببًا في إغوائهم وإضلالهم، أن يلقى هؤلاء المغوون ما يلقون من عذاب وبلاء[(١)].

٦. التناسب.

ومن العوامل المشتركة التي تجمع بين الناس: الاشتراك في صفة واحدة أو أكثر، سواء أكانت حسنة أم سيئة.

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٣/ ١٣٣ بتصرف..

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣].

يعني: الغالب أن المائل إلى الزنا والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في نكاح فاسقة من شكله، أو مشركة، والمسافحة لا يرغب في نكاحها الصلحاء، وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها فاسق مثلها، أو مشرك، فإن المشاكلة سبب الائتلاف والاجتماع، كما أن المخالفة سبب الوحشة والافتراق.

وقدم الزاني في هذه الآية لأن الرجل أصل في النكاح من حيث أنه هو الطالب، ومنه تبدأ الخطبة؛ ولأن الآية نزلت في فقراء المهاجرين الذين رغبوا في نكاح موسرات كانت بالمدينة من بقايا المشركين لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية، فاستأذنوا رسول الله في ذلك فنفر عنه ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغب إلا في نكاح إحداهما، والزانية لا يرغب في نكاحها إلا أحدهما، فلا تحوموا حوله، كيلا تنتظموا في سلكهما، أو تتسموا بسمتهما[(٢)].

فالآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية، ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني، واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١١٦.

الدال على شدة الاستبعاد: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة[1].

والحاصل: أن الزاني لا يطأ إلا زانية، أي: لا يتهيأ له الحصول على من يشاركه هذا الإثم إلا امرأة فاسدة فاسقة مثله، فهو فاسد فاسق، لا يستجيب له إلا فاسدة فاسقة، أو مشركة لا تؤمن بالله، ولا تخشى حسابًا أو جزاء، فهي لهذا مستخفة بكل معنى من معاني الخلق والفضيلة؛ إذ لا ترجو بعثًا، ولا تطمع في ثواب، ولا تخشى من عقاب، وكذلك الشأن في الزانية، إنها لا تدعو إليها إلا فاسدًا فاسقًا، يستجيب لها، ويواقع المنكر معها، أو مشركًا لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، وفي هذا تغليظ لهذا الجرم، واستخفاف بأهله، وأنهم أهل سوء، يجتمع بعضهم إلى بعض، فليس فيهما صالح وفاسد، وإنما هما كائنان فاسدان، ينجذب بعضهما إلى بعض، كما ينجذب الذباب إلى القذر والعفن.

فالآية الكريمة تحكي بأسلوب بديع ما تقتضيه طبيعة الناس في التآلف والتزاوج، وتبين أن المشاكلة في الطباع علة للتلاقي، وأن التنافر في الطباع علة للاختلاف.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[2][3].

ومن الأدلة على أن من أسباب الاجتماع التناسب والتجانس في بعض الصفات: قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي: إن الخبيثات لا يرغب فيهن إلا الخبيثون، والآية مبنية على الآية السابقة: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ لأن الخبيثات والخبيثين هم الزواني ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ وهم العفائف؛ فلا يجوز أن يتزوج عفيف إلا عفيفة مثله، ولا أن تتزوج عفيفة إلا عفيفًا مثلها، وهذه هي سنة النفوس الفاضلة، والخلق الكامل، هذا ولم تخرج أوامره تعالى وإرشاداته لخلقه عن أسمى الأخلاق التي تصبو إليها الإنسانية، وتنتظم بها الأسر، فلا يختلط الخبيث بالطيب، ولا يدنس العفيف نفسه بمخالطة البغي، ولا تنزل العفيفة إلى درك الزاني الفاجر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الطيبون والطيبات

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٦، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ٢٠٣١، رقم ٢٦٣٨.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٨٠.

﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: مما يقوله فيهم الخبيثون والخبيثات، الوالغون في الأعراض، الطاعنون في الكرامات[1].

وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال:٣٧] أي: ويجعل الله الخبيث بعضه منضمًا متراكبًا على بعض، بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، واختلاف المتناكرات[2].

فقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ أي: الفريق الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق المؤمن ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي: يجمعه متراكمًا بعضه على بعض[3].

فيجمع الله الخبيث على الخبيث فيلقي به في جهنم، وتلك غاية الخسران، والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جِرم ذو حجم، وكأنما هو كومة من الأقذار، يقذف بها في النار، دون اهتمام ولا اعتبار ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعًا أعمق في الحس، وتلك طريقة القرآن الكريم في التعبير والتأثير[4].

فيجمع الله بين من كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الباطل، ويستحبون الاجتماع معهم أن يجمعوا في عذاب الآخرة، على ما كانوا يستحبون الاجتماع في الملاهي والطرب في هذه الدنيا ويجتمعون على ذلك؛ فيجمع بين أولئك وبين قرنائهم في جهنم، ويقرن بعضهم إلى بعض في العذاب، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من مات منهم على الكفر ﴿إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦] أي: يجمعون، وعلة هذا الجمع أن يميز الله تعالى الخبيث من الطيب، فالطيبون وهم المؤمنون الصالحون يعبرون الصراط إلى الجنة دار النعيم، وأما الخبيث وهم فريق المشركين فيجعل بعضه إلى بعض فيركمه جميعًا كومًا واحدًا، فيجعله في جهنم.

(١) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٤٢٦ بتصرف.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٢٠٦.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٥٦٩.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٧.

أنواع الاجتماع

ليس كل اجتماع محمودًا شرعًا، ولا كل فُرقة منهي عنها شرعًا، فهناك اجتماع محمود، واجتماع مذموم، وهناك فُرقة محمودة، وفرقة مذمومة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الاجتماع بالإخوان قسمان، أحدهما: على مؤانسة الطبع، وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت، الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة، والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها»(١).

وقد ذكر العلماء أن الاجتماع على ضربين: اجتماع أجسام، واجتماع معانٍ، وهي الأخلاق والأهواء، وجعل افتراق الأهواء كافتراق الأجسام(٢)، وهذه تنقسم إلى ما هو محمود، وما هو مذموم.

وقد سميت سورة من القرآن باسم سورة (الزُمر)، أي: الجماعات، وفيها ذُكر الاجتماع بنوعيه المحمود والمذموم، وفيها عرض لحال من اجتمعوا في الدنيا على الخير زُمرًا، وحال من اجتمعوا في الدنيا على الشر زُمرًا، وحال الفريقين حين يردون الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١].

وقال في الفريق الآخر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣].

و﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعات، والواحد: زمرة، ويقال: تزمر القوم إذا اجتمعوا، وزمرتهم، أي: جمعتهم، وأصله: أن يساق كل فريق على ما أحبوا، وكانوا في الدنيا جماعة جماعة، وأمة أمة، وعلى ما يجتمعون في هذه الدنيا، أهل الخير على أهل الخير، وأهل الشر على أهل الشر، وسروا بالاجتماع في ذلك، لكن أهل الخير يساقون إلى الجنة على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا مسرورين، وأهل الكفر يساقون إلى النار على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الشر حزنين مغتمين(٣).

قال ابن القيم رحمه الله: وتأمل ما في سَوْقِ الفريقين إلى الدارين ﴿زُمَرًا﴾ من فرحة هؤلاء بإخوانهم، وسيرهم معهم كل (زمرة) على حدة، كُلٌ مشتركين في عمل، متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين، أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك

(١) الفوائد، ص ٥٢.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٢٣٧.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٧١٠.

يؤنس بعضهم بعضًا، ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا، فلا تهمل تدبر قوله: ﴿زُمَرًا﴾[1].

أولًا: الاجتماع المحمود:

الاجتماع المحمود هو الذي يكون على الحق، والتعاون عليه ونصرته، والاجتماع على الأعمال الصالحة، ويمكن القول: إن الاجتماع المحمود هو كل ما تتحقق به المصالح والواجبات الشرعية، وتندفع به المضار والمفاسد، وقد أمر الله تعالى في القرآن بالاجتماع والائتلاف والاتفاق، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣] يريد بذلك: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله.

والحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما تمثيل أو استعارة، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، والمعاني كلها متقاربة متداخلة، وذكر ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن حبل الله هو: الجماعة، وذكر بأسانيده أقوالًا أخرى عن السلف في تفسير معنى (حبل الله) منها: القرآن، والإخلاص لله وحده، والإسلام[2]، وهذه الأقوال مؤداها واحد، ونتيجتها واحدة، فإن الاعتصام بالقرآن، والإخلاص لله وحده، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها مما ينتج عنه تآلف المسلمين، واجتماعهم، وترابطهم، وتماسك مجتمعهم.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة»[3].

وزاد الله الأمر تأكيدًا حيث قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: بعد الاجتماع، فالافتراق نقيض الاجتماع، قال الراغب الأصفهاني: قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ حث على الألفة والاجتماع الذي هو نظام الإيمان، واستقامة أمور العالم[4].

ثم أمرهم بتذكر نعمته عليهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣].

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٥٩.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٦٨.

قال الزمخشري: «كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبة، فتحابوا، وتوافقوا، وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم، وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله»(١).

وقال السيوطي: «إذ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام، فآخى به بينكم، وألف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلا هو إن الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذاب»(٢).

وهذا يدل على أن الاعتصام والاجتماع أصل عظيم في الإسلام.

يقول شيخ الإسلام: «وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة»(٣).

وفي قوله: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ دليل على أن الاجتماع المطلوب والمرغوب، والثابت والدائم، هو الاجتماع على الدين، فدين الله دين الاجتماع والخير، فإذا خرج الناس عن هذا الدين إلى الآراء الهدامة، والأفكار المنحرفة تفرقوا شيعًا وأحزابًا، وصار بعضهم عدوًا لبعض، يكفر بعضهم بعضًا، ويفسق بعضهم بعضًا، ويبدع بعضهم بعضًا.

فالمذاهب الهدامة، والآراء الضالة، والأفكار المنحرفة كلها تدعو إلى الفرقة والاختلاف، فتحول الأمة إلى كيانات متناحرة، يعادي بعضهم بعضًا، كما وصف الله اليهود، حيث قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤].

لكن المؤمنين خلاف ذلك تمامًا، فهم أهل مودة وتناصح ومحبة في الظاهر والباطن، يحب بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا.

ونهى الله تعالى عن ضد الاجتماع، وهو الاختلاف والتفرق شيعًا وأحزابًا، المؤدي إلى العداوة والبغضاء والفشل والإتلاف، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وهذه الآية تحض على الاجتماع، وقد بينَ القرآن في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، ومعاداة البعض للبعض منشؤه إنما يكون من ضعف العقول، كما قال في اليهود: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٥.
(٢) الدر المنثور، ٢/ ٢٨٧.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٥٩.

﴿يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر:١٤].

ثم كأن قائلًا قال: ما الموجب الذي صير قلوبهم شتى، أي: مختلفة متنافرة؟! وهم أمة واحدة متفقة في الأهداف والأغراض؟ فبين العِلة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

وليس المراد هنا نفي العقل من أصله، وإنما نفي كمال العقل، يعني: أن عقولهم ليست ناضجة كما ينبغي، أما هم في الحقيقة فمن جملة العقلاء، وهذا يدل على أن هذه الفِرَق -التي تدعي الإسلام- المختلفة، التي يبغض بعضها بعضًا، وإن تجاملت في ظاهر الأمر أن سبب ذلك إنما هو ضعف العقول في بعضها، وقد يكون المختلفان أحدهما عنده عقل كامل يدعو إلى الطريق المستقيم بعقله المستقيم، والآخر ضعيف العقل يَفِر من تلك الطريق ويخالف، فهذا من ضعف العقل[1].

فواضحٌ جدًا أن التنازع هو أحد أسباب الهزيمة الرئيسة، كما أن تجنبه من أسباب النصر الرئيسة، ومن ينظر إلى الواقع، ويعتبر بمسيرة التاريخ يدرك أن الفشل والخذلان الذي لحق بالأمة كان سببه الفرقة والخلاف، فهذه الآية تأتي ضمن عوامل النصر الحقيقية: من الثبات، وذكر الله، وطاعة الله ورسوله، وتجنب الشقاق والنزاع والصبر، والحذر من البطر والرياء.

ولا يتنازع الناس إلا بسبب تعدد القيادات، وبسبب الهوى، حينما يجعل كل واحد من نفسه قائدًا وموجهًا، ولا يقبل من غيره ذلك، ثم يركبه الهوى في تحسين ذاته ونفسه، فيرى من نفسه الحق المطلق، أما مجرد اختلاف أوجه النظر في المسألة الواحدة فليس من أسباب التنازع، لو تجرد صاحب النظر عن الهوى والإعجاب بالنفس.

فإذا وقع التنازع بسبب الهوى والعُجب تغيرت النفوس، وخُدش صفاء الأخوة، فكان الانتصار للنفس لا للحق والصواب، وللذات لا للجماعة والأمة، فتذهب القوى بتشتيتها، وتضعف بتمزيقها، فلو وقعت الهزيمة لم يكن أمرًا عجبًا.

ومن الآيات الواردة في النهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام:١٥٩].

فقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت منهم بريء، وهم منك براء، أي: لم تتلبس بشيء من مذاهبهم، والعرب تقول: إن فعلت كذا فلست مني ولست منك، أي: كل واحد منا بريء من صاحبه[2].

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/ ٥٣٤ بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط للواحدي ٢/ ٣٤٢.

وفي هذا غاية الحث على الاجتماع، ونهاية التوعد على الافتراق[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفًا له؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق؛ فمن اختلفوا فيه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقًا، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه»[2].

وقال السعدي: «دلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أصل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية»[3].

وكذلك نهانا الله أن نكون ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣٢].

وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون:٥٣].

وهذا نهي عن التفرق، وهو في نفس الوقت أمر بالاجتماع والتوحد على الحق والدين.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران:١٠٥].

وانظر كيف جمع بين ﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قال بعضهم: تفرقوا واختلفوا معناهما واحد، وذكرهما للتأكيد، وقيل: بل معناهما مختلف، ثم اختلفوا فقيل: تفرقوا بالعداوة، واختلفوا في الدين، وقيل: تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه، والثالث: تفرقوا بأبدانهم؛ بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيسًا في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق، وأن صاحبه على الباطل[4].

وأريد بالذين تفرقوا واختلفوا: الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق، وقدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق، وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام، وذكر الأشياء مع مقارناتها...، وفيه: إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق هو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضًا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار

(١) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٣٣٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٨٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣١٦.

والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد، وإذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقًا نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول، دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة[1].

ومن الآيات الواردة في النهي عن التفرق قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى الدين في قوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾[2].

قال السعدي: «ولهذا قال: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل، وتحزبكم أحزابًا، وتكونون شيعًا، يعادي بعضكم بعضًا مع اتفاقكم على أصل دينكم، ومن أنواع الاجتماع على الدين، وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها، وعدم التفرق»[3].

ومن الآيات التي تحث المؤمنين على الاجتماع قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات:١٠].

وهذه الأخوّة لا يمكن أن تتحقق إلا بالاجتماع، ونبذ الفرقة.

فالمسلمون مأمورون بالاجتماع، وبمحبة بعضهم بعضًا، والسعي إلى ما تأتلف به القلوب، يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة:٧١].

فالمؤمن ولي للمؤمن، ولاية تقتضي المحبة والمودة والنصيحة والتوجيه والدعوة للخير.

والحاصل: أن هذه الآيات تدل على وجوب الاجتماع والائتلاف وفضله، والحث عليه، وتحريم التفرق والاختلاف، وسوء عاقبته، فقد أوجب الله على المسلمين أن يكونوا إخوة مجتمعين على الحق، متحابين متعاونين على البر والتقوى،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٤٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥٤.

متناهين عن الإثم والعدوان، وشرع لهم ما يقوي هذه الأخوة والمحبة من الاجتماع على الصلوات والخمس والجمع والأعياد والحج، كما شرع لهم تبادل التحية والسلام والمصافحة، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة والنصيحة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتبادل الهدايا، وكل هذا من أسباب المحبة والألفة، وإزالة العداوة والبغضاء.

وقد ذكر القرآن أنواعًا من الاجتماعات المحمودة، منها:

١. الاجتماع على طاعة الله تعالى.

فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والأمر لأمته أيضًا: أن يجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود -رضي الله عنهم-؛ وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك[(١)]، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء[(٢)].

والحكمة من الحث على الاجتماع على الطاعة: أن الاجتماع على الهدى تثبيتٌ وقوة، وأن كثرة السائرين على الطريق تورث الأُنس، وتهوِن مشقة السير، بخلاف الانفراد في السير فإنه يورث الوحشة، ويستجلب الملل، فالإنسان إذا كان معه سالكون لم يستوحش، وكلما كثر السالكون شاع الأمن، ورسخت الطمأنينة، أما السالك وحده فإنه قد يستوحش، وقد يضعف، وقد يسقط، وقد تأكله الذئاب، ويد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية، وهذا الأمر حاصل لمن سلك سبل الدنيا، ولمن سلك سبل المبادئ والقيم سواء بسواء، وهو في الثانية أظهر وأخطر[(٣)].

فالاجتماع على الهدى، وسير المجموعة على الصراط دليل قوة، فإذا كثر السالكون يزيد الأنس، ويقوى الثبات، وكلما كثر السالكون كان ادعى للاطمئنان

(١) أخرج هذه الرواية الطبري في تفسيره ١١/٣٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/٩٦، رقم ١٠٠٠٩، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٢.

(٣) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص ٥٧.

والاستئناس، والاجتماع رحمة، والفرقة عذاب، ومما يشير إلى الأنس بالاجتماع، وطبيعة حب النفس للاجتماع، ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء:١٣].

فـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ جاءت بصيغة الجمع؛ لأن المؤمنين في الجنة يستمتعون بالأنس ببعضهم.

وقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء:١٤].

فـ﴿خَٰلِدٗا﴾ جاءت بصيغة المفرد، فيزيد على عذاب الكافر عذاب الوحدة، فكأنما عذبه الله تعالى بشيئين: النار، والوحدة[(١)].

والمقصود: أن الاجتماع لا يحمد إلا إذا كان على الحق.

ولهذا لما شرع الله تعالى لعباده أحسن شرع وأكمله وأعظمه أمرهم بالاجتماع عليه، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

قال ابن كثير: «أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»[(٢)].

فالأنبياء كلهم والأمم -أمم الأنبياء- مأمورة بذلك، كلهم مأمورون بالاجتماع، لكن المراد هنا: الاجتماع على الحق والخير، فإذا اجتمعت الأمة على الحق الذي هو لا إله إلا الله، ومنافاة البدع جملة وتفصيلًا، ومنافاة الشر والفجور، حينئذٍ هذا هو الاجتماع المطلوب، وليس الاجتماع على أيٍ بدعة أو على أيٍ باطل وشر.

٢. الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله.

ومن الاجتماعات المحمودة: الاجتماع على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير.

قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

وسواء أكان الأمر موجهًا إلى الأمة الإسلامية كلها، أو إلى جماعة منها، فإن معطيات هذا الأمر واحدة، حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشيدة فيها، وهي

(١) المصدر السابق ص ٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٩٥.

جماعة العلماء العاملين بعلمهم، الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم.

فالأمة في هذه الآية بمعنى الجماعة، والمعنى: ولتكن منكم أيها المسلمون أمة لها كيان ونظام، أمة مؤتلفة الأعضاء، موحدة الجهات، لا ترهب أحدًا، ولا تخاف شيئًا، دينها قول الحق، ورفع الظلم، ولو كان عند سلطان جائر، لا تخشى في الله لومة لائم، لها رئاسة وقانون، كل ذلك قد أشارت إليه كلمة واحدة وهي (أمة) إذ هناك فرق بين قولك: جماعة وأمة، فعلى المسلمين جميعًا واجب تكوين تلك الأمة؛ لتكون بهذا الوضع، وعلى الأمة المكونة واجب أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والذب عن حياض الدين، ورفع منارة الحق والعدل.

فالمسلمون جميعًا مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فهذه الجماعة المكونة بهذا الوضع السابق لها حق الإشراف والتكوين والتوجيه والحساب والعمل على خدمة المسلمين، وهذا أشبه بمجلس الأمة! وعلى الأمة جميعًا اختيار طائفة خاصة تقوم بتلك المهمة على سبيل الوجوب، وفي سبيل قيامها بواجبها يجب أن تتوافر فيها شروط العلم الديني، والعلوم التي يحتاج إليها من يخاطب الناس، ويؤثر فيهم مع التقوى والتخلق بأخلاق الأنبياء، وأن يكون الداعية مثلًا أعلى في الخلق الكامل، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المسلمون ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ اختلافًا كثيرًا، كما حصل لليهود والنصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحات التي تهديهم إلى السبيل لو اتبعوها، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولم تكن فيهم أمة تهديهم إلى الخير، وترشدهم إلى الطريق[1].

والمقصود: أن من الاجتماعات المأمور بها الاجتماع على الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا مستفاد من قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾. والأمة مأخوذة من أمَّ بمعنى قصد؛ والجماعة من الناس التي تربطها رابطة، وتجمعها جامعة تسمى أمة؛ لأن كل واحد منها يؤم المجموع ويقصده، ويعتمد عليه في مدلهم الأمور.

ولقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني في معنى الأمة ما نصه: «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها

(١) التفسير الواضح، حجازي ١/ ٢٦٢.

أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] أي: كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُّرْفة[١]، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع»[٢].

وفي الآية إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله، وإرشاد الخلق إلى دينه، كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ، أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة.

ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء، وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين[٣].

فلا بد إذن من جماعة مجتمعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك (دعوة) إلى الخير، ولكن هناك كذلك (أمر) بالمعروف، وهناك (نهي) عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن الأمر والنهي لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، سلطة تتجمع وحداتها، وترتبط بحبل الله، وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي (دعوة) إلى الخير، يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر فتطاع[٤].

(١) السُّرْفة: بضم السين، وسكون الراء: دويبة تتخذ بيتًا من دقاق العيدان، فتدخله وتموت، ومنه المثل: أصنع من سُرْفة.
انظر: القاموس المحيط ص ٨١٩.

(٢) المفردات، ص ٨٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٢.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٤٤٤ بتصرف.

ثانيًا: الاجتماع المذموم:

الاجتماع وإن كان مطلوبًا شرعًا، ومحمودًا عقلًا، إلا أنه لا يختلف عاقلان في أن التفرق والتبدد أولى من الاجتماع على الشرور، والاتفاق على الفجور؛ وعلى الباطل والبدع والضلال، وقد حكى لنا القرآن أمثلة كثيرة على الاجتماع على الباطل والشر، ومن هذه الأمثلة:

١. الاجتماع على المكر والخداع.

كاجتماع بني يعقوب، حين أجمعوا أمرهم على المكر بيوسف عليه السلام، وجعله في غيابة الجب.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف:١٥] وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢].

والاجتماع والإجماع هو الإعداد والعزيمة على الأمر، فهؤلاء اجتمعوا على رأي واحد، واتفقوا على فكرة واحدة، ولكنها في خانة الباطل، وفي المكر والخداع، وبمن؟! بأقرب الناس إليهم! اجتمعوا صفًا واحد ضد أخ لهم؛ حسدًا وبغيًا، فما أقبحه من اجتماع! ويا ويله من تلاقٍ!

ومعنى الآية: وما كنت لدى إخوة يوسف في الوقت الذي أجمعوا فيه أمرهم على التخلص من يوسف بأي ثمن، وهم يحتالون على إخراجه من بين يدي أبويه؛ ليلقوه في غيابة الجب؛ تخلصًا منه، حيث رأوا أنه حجب عنهم وجه أبيهم، وذهب بعطفه وحنانه دونهم.

قال ابن جرير: أي: وما كنت حاضرًا عند إخوة يوسف إذ أجمعوا واتفقت آراؤهم، وصحت عزائمهم، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب؛ وذلك كان مكرهم الذي قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1].

فهم قد تشاوروا كثيرًا، وتعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، واستقر رأيهم بعد تكرر المشاورة على ما فعلوا به، واتفقوا عليه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أن يصل أحد إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها.

٢. الاجتماع على الإفساد في الأرض.

من الاجتماع المذموم الاجتماع على الفساد.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل:٤٨-٤٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٨٣.

«يقول تعالى ذكره: وكان في مدينة صالح، وهي حِجر ثمود، تسعة أنفس، يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض كفرهم بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خص الله -جل ثناؤه- هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين؛ لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود»[1].

فهؤلاء اجتمعوا على الإفساد في الأرض، وقتل الناقة، وتعاهدوا وتقاسموا على ذلك، قال ابن كثير: «يقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضًا -قال ابن كثير-: قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١٤].

وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩].

وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف:٧٧].

فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم»[2].

وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة، فكأنه قيل: تسعة أنفس، والفرق بين الرهط والنفر: أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، أو من السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة...، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام، وكانوا من أبناء أشرافهم، وقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح؛ مع أنك قد تجد بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح[3].

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد، بحيث لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته، وبيتوا فيما بينهم أمرًا، وهو قتله عليه السلام.

ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا لشر المنكر الذي يبيتونه! وهو قتل صالح وأهله بياتًا، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة الله! وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل:٤٩] ولا حضرنا مقتله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فقد قتلوهم في الظلام، فلم يشهدوا هلاكهم، أي: لم يروه بسبب الظلام! وهو احتيال

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٤١.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٢.

سطحي، وحيلة ساذجة، ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويبررون كذبهم، الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله، نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات، وبخاصة حين لا تهتدي بنور الإيمان، الذي يرسم لها الطريق المستقيم، كذلك دبروا، وكذلك مكروا، ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم، ويطلع على مكرهم، وهم لا يشعرون ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل:٥٠][1].

وكما في كل جماعة رأس أو رؤوس تقودها، وتتولى تدبير أمرها، فكذلك كان في هذه الجماعة أكثر من رأس، لقد كان فيها تسعة رؤوس، كلهم فاسد، لا يدعون إلا إلى الشر، ولا يعملون إلا فيما هو شر.

والحاصل: أن هؤلاء النفر قد اجتمعوا وائتمروا فيما بينهم، على أن يهلكوا صالحًا وأهله، فأقسموا على ذلك، وجعلوا لتنفيذ هذه المؤامرة وقتًا هو الليل، ثم اتفقوا كذلك على الموقف الذي يلقون به ولي الدم لصالح وأهله؛ وذلك بأن ينكروا أنهم شهدوا مصرع صالح ومن معه.

٣. الاجتماع على الكفر والاستهزاء بدين الله.

ومن الاجتماعات المذمومة التي ذمها الله في القرآن: اجتماع الكفار والمنافقين على السخرية والاستهزاء بدين الله.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠].

ونظيره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

فهؤلاء اجتمعوا على الكفر، وهو الاستهزاء بالدين، والخوض في آيات الله بالباطل، فنهى الله عز وجل عن مجالستهم، وحضور اجتماعهم المشؤوم.

ثم زاد الأمر تخويفًا بقوله: إن جالستموهم ورضيتم باستهزائهم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الكفر[2].

قال أبو جعفر: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسَقة، عند خوضهم في باطلهم[3].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٥.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤١٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٢١.

وفي الآية وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله، أو بحججه، أو برسله، وأن لا يقعد معهم؛ لأن في القعود إظهار عدم الكراهة؛ وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يجب الإعراض، وترك الجلوس معهم إذا لم يطمع في قبولهم، فإذا انقطع طمعه إذًا فلا فائدة في دعائهم، ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سببًا في ترك الخوض، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة[1].

ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ نهي للمسلمين عن الجلوس في هذا المجلس القائم على تلك الصفة، وليس نهيًا عامًا مطلقًا على تجنب الجلوس مع المنافقين والكافرين، ففي ذلك إعنات للمؤمنين، فقد تستدعي أحوالهم أن يكونوا بحيث لا منصرف لهم عن الحياة مع هذه الجماعة، وتبادل المنافع معها!

على أن من السلامة لدين المؤمن أن يتجنب مجالس هؤلاء القوم ما استطاع، فإذا مست هذه المجالس دينه بما يسوء كان أمرًا لازمًا عليه أن يتحول عن هذه المجالس في الحال، ولا يخلط نفسه بها، وإلا حمل وزره من الإثم الذي يتعاطاه فيها أهل النفاق والكفر، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: لا فرق بينكم أيها المؤمنون وبين هؤلاء الأئمة الذين يهزءون بآيات الله، ويسخرون منها، إذا أنتم استمتعتم إلى هذا المنكر ولم تنكروه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تهديد ووعيد بهذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين، ومن يلوذ بالكافرين والمنافقين، ويركن إليهم، ويستمع للزور الذي يدور بينهم[2]. يريد: كما أنهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا؛ فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة[3].

وهذا هو حضور الزور المنهي عنه، والزور كلُ مَا خالف الحق، فمعنى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢] أي: لا يحضرون الباطل، في أي لون من ألوانه، قولًا أو فعلًا أو إقرارًا.

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ إشارة إلى ما نزل قبل هذا من

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٩٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٣٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٤٧.

قرآن في مثل هذا الموقف، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾.

فهذه الآية هي توكيد لهذا التنبيه الذي سبق نزول القرآن به من قبل، وتحذير جديد لأولئك الذين لم ينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب في الآية موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أمر ملزم لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان النبي إمامهم وقدوتهم[1].

٤. الاجتماع على الخمر والميسر.

ومن الاجتماع المذموم الاجتماع على الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١].

فلما كان الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة، ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه، ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش؛ وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الألفة والمحبة، وبالآخرة انقلب الأمر، وحصلت نهاية العداوة والبغضاء.

وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوبًا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبًا فيه، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال...، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرًا مسكينًا، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له، فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم[2].

والمقصود: أن كل اجتماع لم يؤسس على طاعة الله، ولم يكن على نور من الله، فهو اجتماع مذموم، واجتماع يؤول إلى الحسرة والندامة، وتنقلب الألفة إلى نفرة، والمحبة إلى عداوة، والكثرة إلى قلة.

وقد أخبر الله تعالى عن بعض أهل الأعراف أنهم ينادون رجالًا من المشركين يعرفونهم بعلاماتهم، فيقولون لهم: ﴿مَآ

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

﴿أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٨] يعني: ما أغنى عنكم جمعكم واجتماعكم وكثرتكم، ولا استكباركم عن الإيمان.

قال الرازي: والمراد بالجمع: إما جمع المال، وإما الاجتماع والكثرة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ والمراد: استكبارهم عن قبول الحق، واستكبارهم على الناس المحقين، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام، ثم زادوا على هذا التبكيت وهو قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف:٤٩] فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة، كانوا يستضعفونهم، ويستقلون أحوالهم، وربما هزأوا بهم، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية لمن كان مستضعفًا عنده قلق لذلك، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه[1].

معوقات الاجتماع المحمود

١. اتباع الهوى.

من أسباب عدم الاجتماع ومعوقاته: اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥].

فقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن الأهواء والبدع تفرق؛ ولقد جاء الأمر صريحًا لمحمد صلى الله عليه وسلم باتباع الشرع الحنيف، والنهي عن اتباع الهوى كما في الآية السابقة، وكما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:١٨].

ولهذا كان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، ويذمونهم بذلك.

قال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنة نبيكم، والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء»[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥١.

(٢) انظر: ذم الكلام وأهله، الهروي ٥/ ١٧.

وصدق أبو العالية رحمه الله، فهذه الأهواء المذمومة قد فرقت الأمة، وفككت كيان الجماعة المسلمة، والمتأمل لأسباب الفرقة يجد أنها تدور في رحاها بين الجهل وبين اتباع الهوى، والظلم؛ لذلك لا اجتماع للأمة إلا بوحدتها على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه الكريم، والتزام صراطه المستقيم علمًا وعملًا، حقًا وعدلًا، وترك الأهواء.

٢. اتباع السُبُل:

ومن معوقات الاجتماع: اتباع السبل المتفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ الإشارة إلى معهود لدى المخاطبين، أو إلى ما جاء في السورة، وهو الإسلام والقرآن، وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ونلحظ إضافة الصراط إلى الله في كثير من الآيات، كما في هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٢٦].

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

وقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]. وكأنه يقول: ولأن هذا صراطي فهو علة للاتباع[(١)].

و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال من ﴿صِرَٰطِي﴾ مؤكدة لمعنى إضافته إلى الله[(٢)].

﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ والسُبُل الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد، ومقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات[(٣)].

فذكر تعالى أن له سبيلًا واحدة سماها: صراطًا مستقيمًا؛ لأنها أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام، وأن هناك سبلًا متعددة، يتفرق متبعوها عن ذلك الصراط، وهي طرق الشيطان، فطريق الحق هو الوحدة والإسلام، وطرق الشيطان هي مثارات التفرق والخصام، وهي معروفة في كل الأمم، ولكن الشيطان يزين طرقه، ويسول للناس المنافع والمصالح في التفرق.

قال القاسمي: «فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٤٨.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٦٢.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨٩.

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها»[(١)].

وقد بين العلة في ذلك ابن القيم في أحسن بيان، حيث قال: وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرفًا تعريفين:

- تعريفًا باللام.
- وتعريفًا بالإضافة.

وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له...، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله[(٢)].

وكذلك وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨].

إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه[(٣)].

والحاصل: أنه تعالى وحَد لفظ (صراطه) و(سبيله) وجمع (السبل) المخالفة؛ ووجه المناسبة في ذلك أنه لما كان الهدي شيئًا واحدًا غير متشعِب السبل ناسبه التوحيد؛ ولما كان الضلال له طرقٌ متشعبةٌ ناسب الجمع.

والمقصود: أن من الأسباب المانعة من الاجتماع اتباع السبل، وهي الطرق المختلفة في الدين، وأن السبيل الوحيد للنجاة من ذلك هو اتباع صراط الله الذي وصفه بالاستقامة، فلا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، فاتبعوه وحده، ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه، وهي كثيرة، فتتفرق بكم عن سبيله، بحيث يذهب كل منكم في سبيل ضلالة منها ينتهي بها إلى الهلكة؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس أمام تارك النور إلا الظلمات.

(١) محاسن التأويل، ١/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القيم ص ١٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٥ بتصرف.

٣. التحزَب.

ومن معوقات الاجتماع: التحزب والتعصب.

قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون:٥٣] وقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم:٣٢].

يعني: كان الناس أمة واحدة على دين واحد، وهو دين الإسلام، كما قال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥٢].

والمعنى: وإنَ دينكم -يا معشر الأنبياء- دين واحد، وهو الإسلام، وأنا ربكم، فاتقوني بامتثال أوامري، واجتناب زواجري، فتفرَق الأتباع في الدين إلى أحزاب وشيع، جعلوا دينهم أديانًا، بعدما أُمروا بالاجتماع، كل حزب معجب برأيه، زاعم أنه على الحق، وغيره على الباطل، وفي هذا تحذير من التحزب والتفرق في الدين.

ولهذا قال هنا: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ والتقطع يقتضي التحزب، وقديمًا كان التحزب مسببًا لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق، والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه[(١)].

وجيء بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم بقولهم: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥٢].

بل تقطعوا أمرهم بينهم سريعًا، فاتخذوا آلهة كثيرة، فصار دينهم متقطعًا قطعًا، لكل فريق صنم، وعبادة خاصة به.

والكلام مسوق مساق الذم؛ ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي: فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجبًا من حالهم، ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أي: وهم ليسوا بحال من يفرح[(٢)].

والتفرق والتباين يُعد من العذاب الذي تصاب به الأمم، وهو الداء العضال الذي أصاب أهل الإسلام-، كما قال تعالى: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] هذا عذاب للأمم يحل وحدتها، وينثر جمعها، وهو أشد أنواع العذاب عندما يتفاقم، ويكون الهوى المتبع، والشح المطاع، وإعجاب كل امرئٍ وكل جماعة بنفسها وطريقتها ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٧٣ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٧٣.

﴿فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣] فعندئذٍ تنفك العرى، وتنحل الأواصر، ويقوم المنكر، ويذهب المعروف، ولا سماع لصوت الحق[١].

والحاصل: أن التحزب يؤدي إلى التعصب، وهو من أسباب عدم اجتماع الأمة، وتفرقها إلى جماعات وأحزاب، وكل طائفة وفرقة من هؤلاء تحدث بدعًا وأفكارًا، تفرح بها، وتظن أنها على الحق، وأن الصواب معها دون غيرها.

حتى يصير أمرهم بينهم كما قال الله: ﴿زُبُرًا﴾ والزبر: جمع زبرة، والزبرة قطعة من الحديد، وقد شبهت الجماعات المختلفة في نزاعها بزبر الحديد، من حيث إن كل واحدة شديدة في التمسك بما عندها؛ كأنها صلب الحديد، لا تترك رأيها، كما لا تتفرق زبر الحديد.

أي: اختلفوا متقطعين متنابزين غير مجتمعين في أمرهم، بحيث لا متسع للالتقاء فيما بينهم، يتحزبون في تفكيرهم: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل جماعة متحزبة متعصبة لما عندها، فرحة به، وتحسب أنه الحق الذي لا ريب فيه، وهو الضلال المبين، وإن التحزب لفكرة يدفع إلى التعصب لها، والتعصب يعمي ويصم، وتقديم الجار والمجرور ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ لبيان أهميته عندهم[٢].

(١) زهرة التفاسير ٥/ ٢٥٣٧.

٤. البغي.

ومن معوقات الاجتماع: البغي، وقد اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغيًا بينهم، وظلمًا وعدوانًا من أنفسهم.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧].

فقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ بغيًا: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي، أو بسبب أنهم بغى بعضهم على بعض حدثت الفرقة بينهم.

فهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة؛ ولكنهم فعلوا ذلك للبغي، وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية، والأنفة الطبعية على أن ذهب كل طائفة إلى

(٢) انظر: زهرة التفاسير ١٠/ ٥٠٨٤ بتصرف.

مذهب، ودعا الناس إليه، وقبح ما سواه؛ طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل[1].

ورحم الله الإمام الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: «والمقصود من هذه الجملة التعجب من أحوالهم؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وها هنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف؛ وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغي»[2].

ومعنى الآيات: أي: لم يكن اختلاف هؤلاء المختلفين من اليهود من بني إسرائيل في كتاب الله الذي أنزله عن جهل منهم به، بل كان اختلافهم فيه، وخلافُ حكمه من بعد ما ثبتت حجته عليهم بغيًا بينهم، وطلبَ الرياسة من بعضهم على بعض، واستذلالًا من بعضهم لبعض[3].

وقال بعض العلماء: خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم العلم، فالمفترض أن يكونوا على علم، فإن تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف، وأولى بوصف الكفر، والإعراض عن دين الله تبارك وتعالى.

والحاصل: إن من أسباب التفرق وعدم الاجتماع البغي، والبغي: تجاوز الحق إلى الباطل في كل شيء، يقال: بغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه؛ ولهذا قال ها هنا في هذه الآيات: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالتوحيد، فهم ما اختلفوا بسبب عدم الحجة أو البيان، وإنما ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسدًا وظلمًا وعدوانًا.

فقد بغى بعضهم على بعض، وظلم بعضهم بعضًا، وعلا بعضهم على بعض، وغار بعضهم من بعض، وحسد بعضهم بعضًا على ما أعطاهم الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء:٥٤].

فطلبوا الدنيا بالدين، فضاع منهم دينهم، وضاعت منهم دنياهم وأخراهم.

ولولا بغيهم ونصرهم مذهبًا على مذهب، وتضليلهم من خالفهم؛ بتفسيرهم نصوص الدين بالرأي والهوى، وتأويل بعضه أو تحريفه؛ لما حدث هذا الاختلاف[4].

والعبرة من هذا القصص: أن نبتعد عن الخلاف في الدين، والتفرق فيه إلى شيع

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٤٦٧ بتصرف.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨١ بتصرف.
(٤) تفسير المراغي ٣/ ١٢٠.

ومذاهب، كما فعل من قبلنا، ولكن وا أسفاه! وقعنا فيما وقع فيه السالفون، وتفرقنا طرائق قددًا، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نزال نئن منه، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته، ويمدنا بروح من عنده، فيسعى أهل الإيمان الصادق في نبذ الاختلاف والشقاق، والعودة إلى الوحدة والاتفاق، حتى يعود المسلمون إلى سيرتهم الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان.

٥. كيد الأعداء.

ومن الأسباب الصارفة عن الاجتماع: كيد الأعداء وتربصهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧].

فقوله: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يفرقون به جماعتهم؛ لأنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وجاءوا يخدعون النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، ربما جاء السيلُ، فيقطع بيننا وبين الوادي، ويحول بيننا وبين القوم، ونصلي في مسجدنا، فإذا ذهب السيل صلينا معكم! وبنوه على النفاق[١].

والمنصوبات المتعاطفة هنا ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ هي مفعول لأجله، تكشف عن السبب الذي لأجله بني هذا المسجد، وهو للمضارة، لا للنفع، وللكفر لا للإيمان، ولإيواء من حارب الله ورسوله، لا لدعوة من آمن بالله ورسوله.

وليكون مأوى يأوي إليه المنافقون، ويدارون نفاقهم بالاجتماع فيه، والاستظلال بظله، ثم ليفرقوا بين المؤمنين، حيث لا تجتمع جماعتهم في مكان واحد، بل يتوزعهم المسجدان المتجاوران، فيقل بذلك جمعهم، وتصغر في الأعين جماعتهم، الأمر الذي يخالف ما يدعو إليه الإسلام من جمع المسلمين في صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، لتتوحد مشاعرهم، وتمتلئ العيون مهابة، وإجلالًا لهم[٢].

والحاصل: أن هؤلاء المنافقين عملوا على التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون، وجمع الكلمة، وهي أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية، ومن ثم كان تكثير المساجد، وتفريق الجماعة منافيًا لأغراض الدين ومراميه، ومن الواجب أن يصلي المسلمون الجمعة في مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فإن تفرقوا عمدًا كانوا آثمين.

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٦/ ٨٩٥.

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة.

فهؤلاء الأعداء سعوا جاهدين بمكر وكيد ليشقوا صف المؤمنين، ويفرقوا جماعتهم بهذه الخطة، وهذا الكيد العظيم، وهو بناء هذا المسجد، الذي من أعظم البواعث من بنائه هو تفريق المؤمنين.

ولذا قال تعالى في الباعث: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن ذلك التفريق هو إبعاد فريق من المؤمنين عن الجماعة التي يؤمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، يغرونهم بالتأثير فيهم، رجاء أن يقتطعوا من المؤمنين من يضمونهم إليهم؛ إذ بعدوا عن النور الكاشف لخداعهم، وإفسادهم، فيخلو لهم الجو ليخادعوهم، وينجح خدعهم.

والمقصود: أن من معوقات الاجتماع بين المؤمنين سعي الأعداء في التفريق بينهم، كما أراد هؤلاء المنافقين من بناء المسجد، وهو أن يفرقوا بين المؤمنين وبين رسول الله، حتى إذا جاءهم العدو وجدهم متفرقين، فيكون أيسر وأهون عليهم في الكسر عليهم، والظفر بهم من أن كانوا مجموعين.

وهكذا أعداء اليوم يعدون العدة، ويرسمون الخطط، ويعقدون اللقاءات والمؤتمرات والدراسات للتفريق بين المسلمين، وضرب بعضهم ببعض، ويمكرون ليل نهار في تقطيع أوصال هذه الأمة.

الاجتماع يوم القيامة

سمي يوم القيامة يوم الجمع لاجتماع الخلائق فيه في مكان واحد للحساب؛ فإن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين إلى عرصات القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا، فحينئذٍ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم والحزن والعذاب الشديد؛ وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون[1].

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٧.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧].

وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٩].

وقد بَيَّنَ تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

والآيات الدالة على الجمع المذكور كثيرة[١].

فيوم القيامة يوم الجمع، والعجيب أنه أيضًا يوم الافتراق.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم:١٤].

فهو يوم الجمع في أول ما يبعثون ويحشرون، ثم يفرق بينهم تفريقًا لا اجتماع بينهم أبدًا؛ قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

فهو يوم الجمع في حال ووقت، ويوم الافتراق في حال ووقت آخر، وبعض أهل التأويل يقولون: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ العابد والمعبود، والتابع والمتبوع، بعدما كانوا مجتمعين في الدنيا، وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

فهذا تفرقهم على قول بعضهم، والوجه فيه ما ذُكر بدءًا[٢].

والمقصود: أن أعظم الاجتماعات على الإطلاق اجتماع هذا اليوم، وهو المعاد الأعظم؛ ولهذا سمي يوم الجمع الذي لا أكبر منه جمعًا.

وسمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر[٣].

وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد.

وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله[٤].

وقيل: يجتمع فيه أهل السماوات وأهل

(١) أضواء البيان ٧/ ٤٦.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٢٥٧ بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٠.

الأرض، أو يجمع بين الظالم والمظلوم[1]. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات، وعقاب أهل المعاصي[2]. وكلها أقوال صحيحة، تحتملها الآية.

١. يوم الجمع: جمع المخلوقات في أرض المحشر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

ومعنى الجمع لهذا اليوم: الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة؛ مثل قوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

أي: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين، فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به، كقوله: في محفل من نواصي الناس مشهود، أي: كثير شاهدوه، ولو جعل اليوم مشهودًا في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه، فإن سائر الأيام كذلك[3].

ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدل على معنى الثبات، أي: ثابت، جمع الله الناس لأجل ذلك اليوم، فيدل على تمكن تعلق الجمع بالناس، وتمكن كون ذلك الجمع لأجل اليوم حتى لقب ذلك اليوم يوم الجمع في الآية السابقة...، وعطف جملة: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ على جملة ذلك يوم مجموع له الناس لزيادة التهويل لليوم بأنه يشهد، وطوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشاهدون؛ إذ ليس القصد إلى شاهدين معينين، والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنهم يشهدونه شهودًا خاصًا، وهو شهود الشيء المهول؛ إذ من المعلوم أن لا يقصد الإخبار عنه بمجرد كونه مرئيًا؛ لكن المراد: كونه مرئيًا رؤية خاصة، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقق، أي: مشهود بوقوعه، كما يقال: حق مشهود، أي: عليه شهود، لا يستطاع إنكاره، واضح للعيان، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى كثير الشاهدين إياه لشهرته، كقولهم: لفلان مجلس مشهود[4].

فما أعظمه إذن من جمع! وما أكبره من حشر! حتى الملائكة التي تملأ السماء، والتي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك، والسماء التي بهذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدودًا، والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة في الفضاء! فهل هذا يقرب شيئًا للتصور البشري عن عدد الملائكة؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع! وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن!

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٦.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٦١.

٢. الجمع بين المتخاصمين.

وأخبر الله تعالى أنه يجمع بين عباده المتخاصمين يوم القيامة، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه، ولا يظلم مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦].

أي: قل لهم: إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب، ثم يقضي بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وهنالك يُجزى كل عامل بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وستعلمون يومئذٍ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية[١].

فهذا الجمع يوم القيامة في صعيد واحد من أجل إقامة العدل الإلهي، ووضع الموازين القسط، كما قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

ولهذا قال سبحانه ها هنا: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه المحق من المبطل.

ففي أول الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ليلتقي الحق بالباطل وجهًا لوجه؛ وليدعو أهل الحق إلى حقهم، ويعالج الدعاة دعوتهم، وفي أول الأمر تختلط الأمور وتتشابك، ويصطرع الحق والباطل، وقد تقوم الشبهات أمام البراهين، وقد يغشى الباطل على الحق؛ ولكن ذلك كله إلى حين، ثم يفصل الله بين الفريقين بالحق، ويحكم بينهم حكمه الفاصل المميز الحاسم الأخير ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ الذي يفصل ويحكم عن علم وعن معرفة بين المحقين والمبطلين.

وهذا هو الاطمئنان إلى حكم الله وفصله، فالله لا بد حاكم وفاصل ومبين عن وجه الحق، وهو لا يترك الأمور مختلطة إلا إلى حين، ولا يجمع بين المحقين والمبطلين إلا ريثما يقوم الحق بدعوته، ويبذل طاقته، ويجرب تجربته، ثم يمضي الله أمره، ويفصل بفصله.

والله سبحانه هو الذي يعلم ويقدر متى يقول كلمة الفصل، فليس لأحد أن يحدد موعدها، ولا أن يستعجلها، فالله هو الذي يجمع، وهو الذي يفتح ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[٢].

فإذا عجز الخلق عن أن يتبينوا من المحق ومن المبطل، ومن هم أهل الهدى؟ ومن هم أصحاب الضلال في هذه الخصومة

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٨١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٥.

في الله القائمة بين الخلق؟ إذ عجزوا عن أن يحكموا في هذه القضية في الدنيا فإن القضية ستحال إلى الآخرة، وسيفصل فيها أحكم الحاكمين، يوم يجمع الله الناس جميعًا، فهو الحكم العدل، الذي يحكم عن علم محيط بكل شيء؛ ولهذا جيء بصيغة المبالغة (فتاح).

فجملة ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته، وإحاطة العلم؛ وبذلك كان تذييلًا لجملة ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المتضمنة حكمًا جزئيًا، فذيل بوصف كلي، وإنما أتبع ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ بـ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ للدلالة على أن حكمه عدل محض؛ لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز، واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب[1].

وقد كثرت الآيات في هذا المعنى، ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ [الشورى:١٥].

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:١٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٣].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:٦٩].

٣. الجمع في المصير بين المتشابهين في الأعمال.

يأمر الله عز وجل يوم القيامة بجمع الكفار والظالمين وأزواجهم، ومن كان على شاكلتهم وأمثالهم وأشباههم من رجال ونساء، وآلهتهم التي كانوا يعبدونها، كما تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٢-٢٤].

والحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد[2]. فيأمر الله بجمع هؤلاء الأصناف الثلاثة في موقف الحساب، وهم:

- الظالمون.
- وأزواجهم.
- والأشياء التي كانوا يعبدونها من دون الله من الأوثان والأصنام وغيرها.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٩٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٤٤.

والعلة ظاهرة في حشر الصنفين الأوليين ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ لكن لماذا تُحشر المعبودات من الملائكة، ومن آدمي رضي بذلك، ومن صنم ووثن، وغيرها؟ والجواب: زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم مع عدم نفعهم وعجزهم، وتوبيخًا لهم، وإظهارًا لسوء حالهم، ومن أجل أن يتبرأ من لم يرض منهم بذلك.

فالصنف الأول ممن يجمع ويحشر: الظالمون: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ظلم الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

ولذلك كان الشرك أعظم أنواع الظلم، فظلموا الحق في النفس، وظلموا ما كان يجب ألا يظلموا أنفسهم فيه، فأنكروا خالقهم وقدرته وإرادته، وأنكروا كونه جل جلاله لا يحتاج إلى معين، ولا وزير ولا مساعد، ولا شريك له ولا ند، لا في ذات ولا في صفات ولا في أفعال.

قال الرازي: «ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله، وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر؛ وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار، ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]»[(١)].

والصنف الثاني: أزواجهم:

ومعناه: ونظراءهم وضرباءهم، تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وكذلك زوجان من الخفاف، أي: كل واحد نظير صاحبه؛ وكذلك الزوج المرأة، والزوج الرجل، وقد تناسبا بعقد النكاح، وكذلك قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص:٥٨][(٢)].

فالزوج: هو اسم لشكله، واسم لضده، اسم لهما جميعًا، يحتمل قوله: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشكالهم وقرناؤهم من الجن والإنس والشياطين، يأمر الملائكة أن تجمع بين من كانوا يجتمعون في هذه الدنيا، ويستحبون الاجتماع معهم أن يجمعوا في عذاب الآخرة، على ما كانوا يستحبون الاجتماع في الملاهي والطرب في هذه الدنيا، ويجتمعون على ذلك؛ فعلى ذلك يجمع بين أولئك وبين قرنائهم في جهنم، ويقرن بعضهم إلى بعض في العذاب؛ كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف:٣٦][(٣)].

قال الرازي: «اختلفوا في المراد بأزواجهم، وفيه ثلاثة أقوال:

الأول: المراد بأزواجهم: أشباههم، أي:

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٢٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٠١.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥٥٥.

أحزابهم ونظراؤهم من الكفر، فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه، وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ [الواقعة:٧] أي: أشكالًا وأشباهًا.

الثاني: أنك تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وتقول: زوجان من الخف؛ لكون كل واحد منهما نظير الآخر، وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين؛ لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح، وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم؛ لكون كل واحد من سميه مثالًا للقسم الثاني في العدد الصحيح.

القول الثاني: في تفسير الأزواج أن المراد: قرناؤهم من الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف:٢٠٢].

والقول الثالث: أن المراد: نساؤهم اللواتي على دينهم»[1].

إلا أن جمهور أهل العلم منهم: عمر وابن عباس رضي الله عنهم على أن المراد به: أشباههم ونظراؤهم، فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني وهكذا، وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن، وفي كلام العرب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف:١٢].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١] إلى غير ذلك من الآيات[2].

والصنف الثالث مما يجمع: المعبودات.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

وفيه قولان:

الأول: المراد: ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت، ونظيره قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

قيل: المراد بالناس عباد الأوثان، والمراد بالحجارة: الأصنام التي هي أحجار منحوتة، فإن قيل: إن تلك الأحجار جمادات، فما الفائدة في حشرها إلى جهنم؟

أجيب: بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها؛ ولقائل أن يقول: هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٢٨.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣٠٩.

يصدر عنها ذنب، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها؟ والأقرب أن يقال: إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام، بل يتركها على الجمادية، ثم يلقيها في جهنم؛ لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا، فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين.

وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠].

والقول الأول أولى؛ لأن الشياطين عقلاء، وكلمة (ما) لا تليق بالعقلاء[(١)].

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى يجمع الذين كفروا بالله في الدنيا، وعصوه وأزواجهم وأشياعهم على ما كانوا عليه من الكفر بالله، وما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة.

يحشر المشركون وأشباههم في الشرك، ومتابعوهم في الكفر، ومشايعوهم في تكذيب الرسل، وقرناؤهم من الشياطين، يحشر كل كافر مع شيطانه، كذلك يحشر أصحاب المعاصي مع بعضهم، فيجمع أهل الزنا معًا، وأهل الربا معًا، وأصحاب الخمر معًا، وهكذا.

قال صاحب الظلال: احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين، فهم أزواج متشاكلون، وفي الأمر على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح في قوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣].

فما أعجبها من هداية خير منها الضلال! وإنها لهي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم؛ وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم! وها هم أولاء قد هُدوا، هُدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا على استعداد للسؤال، وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع في صورة سؤال بريء!

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات:٢٥]؟!

ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا، وأنتم هنا جميعًا؟! وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين؟! ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون! ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام! إنما يرد التعليق والتعقيب[(٢)].

ويدخل في (أزواجهم) قرناءهم وأشكالهم، ومن عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير، وكذلك في هذه الطريقة من أعان صاحب معصية في معصيته، أو صاحب زلة على زلته كان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/٣٢٨ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٦.

مشاركًا له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأزواج: الأمثال والأشباه والنظائر، أي: مأخوذ من المزاوجة والمشاكلة، تقول: وزاوج الرجل المرأة فأصبحت ندًا وشريكًا له في حياته، وكذلك هؤلاء في ظلمهم وفي كفرهم وفي شركهم، وانفرد الحسن البصري، فقال: أزواجهم نساؤهم، وزوجاتهم المشركات اللاتي متن على الشرك؛ ليزداد عذاب البعض بالبعض، وعلى كل فلا حاجة لهذا التفسير، سواء كانت زوجة أو غير زوجة، فإن كانت مشركة فهي من أمثاله، وهي من أشكاله، اجتمعت به أو لم تجتمع، فهم سيحشرون في مكان واحد، ويفصلون عن المسلمين.

ويدخل في ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢] إبليس وشيطان وحيوان، وجمادات؛ لتكون حجة الله البالغة عليهم، فهؤلاء الذين كنتم تعبدون سيتبرؤون منكم ومن عبادتكم، فإن كانوا يعبدون الملائكة أو رسلًا أو صالحين، فإنهم أيضًا يقفون معهم.

وكما قال الله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

فيحشرون معهم للبراءة منهم، فالصالحون لا يحشرون معهم إلى النار، ولكن يقفون معهم، ليتبرؤوا منهم؛ وليدركوا إذ ذاك -ولات حين إيمان- أنهم عاشوا على ضلال، عاشوا على باطل، ولكن اعترافهم فاته الزمن، وفاته الوقت، وكما يقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، لقد قطعوا بالوفاة وبالموت، وبعد أن يحشروا ويكبلوا في السلاسل يقول الله لملائكته: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي: دلوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣] إلى الطريق البين الواضح الذي يوصل إلى جهنم، وقد تكون جهنم بعيدة عليهم، فتأتي الملائكة تحشرهم وتسحبهم زحفًا على وجوههم إلى أن يدخلوا النار، وبئس المصير.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات:٢٢].

يقتضي حضورهم معهم في المحشر، وآية الأنعام فيها سؤالهم عن شركائهم ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام:٢٢]؟

والجواب: هم حاضرون بالفعل، محشورون معهم مصداقًا للآية التي في سورة الصافات.

لكن المقصود هنا بتقدير مضاف، فقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾ يعني: أين نفع شركائكم؟

وأين شفاعة شركائكم؟!

فهم بمنزلة الغُيَب؛ لأن الحاضر الذي لا نفع ولا فائدة من حضوره هو مثل الغائب، ومثل الميت، ومثل المعدوم؛ لأنهم عدموا ما رجوا منهم من الشفاعة.

فالمقصود هو التوبيخ والتقريع، وأن يقرر في نفوسهم أن ما كانوا يرجونه ميؤوس منه، وثمرة هذا أنهم يعلمون في الدنيا أنه تقوم عليهم الحجة، فيعملون عقولهم ليستحضروا ما هم عليه من الضلال، وأن هؤلاء الذين يرجون شفاعتهم سوف ييئسونهم ويخذلونهم؛ وذلك تنبيه لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة[1].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ من الهدى العام، أي: دلوهم وأرشدوهم إلى صراط الجحيم، أي :طريق النار ليسلكوها إليها، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ راجع إلى الثلاثة: الذين ظلموا، وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله.

وقد دلت هذه الآية أن الهدى يستعمل في الإرشاد والدلالة على الشر، ونظير ذلك في القرآن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٤].

ولذلك كان للشر أئمة يؤتم بهم فيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١][2].

موضوعات ذات صلة:

الاختلاف، الأخوة، الأمة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ٥٠/ ١٥.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣١٠.